العلاقات بين النصوص في التأليف العربي

عرض: ناصر عبد الرحمن

مدرس مساعد - قسم المكتبات والوثائق والمعلومات

كلية الآداب - جامعة القاهرة

خلف لنا علماء الإسلام إنتاجا فكرياً غزيراً في كمه، متنوعا في موضوعاته، حتى أننا نجد من بين المهتمين بهذا الإنتاج من يرى في غزارة هذا الإنتاج، وفي تنوع موضوعاته أسباباً كافية لحصر مفرداته ووصفها بهدف تعريف المستفيدين بها. ويستطيع المتصفح لكتاب مثل «الفهرست» لابن النديم، أو كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة وغيرهما من الجهود الببليوجرافيه التي سعت إلى حصر تراث الإسلام، وأن يقف على حجم هذا التراث وعلى تنوع موضوعاته.

ولم يقتصر الاهتمام بهذا الانتاج الفكرى على حصره فقط، بل إننا نجد عدداً من الدراسات التي اتخذت في تناولها ومعالجتها لهذا الانتاج عدة اتجاهات، فنجد من بين هذه الدراسات ما يهتم بالتأريخ لهذا الإنتاج، وإبراز إسهامات علماء الإسلام في المجالات الموضوعية المختلفة. ونجد من بينها ما يهتم بتحقيق ونشر مفردات هذا الإنتاج، إلى جانب تلك الدراسات التى عنيت بمناهج علماء الإسلام في البحث العلمى وبيان صلتهم بالإنتاج الفكرى الذى خلفه المؤلفون السابقون. وإذا كانت هذه الدراسات قد أشارت من جانب أو آخر إلى أساليب هؤلاء العلماء المصنفين في التأليف؛ فنادرة تلك الدراسات التى تفرد هذا الموضوع بدراسة مستقلة.

ولقد اتخذ التأليف كما عرفه علماء الإسلام خلال أربعة عشر قرناً من الزمان عدة اتجاهات جمعها عبد الباسط بن موسى العلموى المتوفى سنة ٩٨١ هـ في سبعة أقسام حيث يقول (١): إن الأقسام التى لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها هى:

* كمال عرفات. العلاقات بين النصوص في التأليف العربي: دراسة علي تفارع النصوص العربية: منهج جديد لعلم الببليوجرافيا التكوينية. - القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٣. - ٤٣٧ص: ايض؛ ٢٤سم. - (دراسات في الكتب والمعلومات).

(١) العلموى: المعيد في أدب المفيد والمستفيد دمشق، مطبعه الترقي، ١٣٤٩ هـ: ص. ٨٠.

١ ـ أن يؤلف فى شئ لم يسبق إليه فيخترعه.

٢ ـ أو شئ ناقص يتممه.

٣ ـ أو شئ مغلق فيشرحه.

٤ ـ أو شئ طويل يختصره دون أن يخل بشئ من معانيه.

٥ ـ أو شئ متفرق يجمعه.

٦ ـ أو شئ مختلط يرتبه.

٧ ـ أو شئ أخطأ فيه مصنعه فيصلحه.

والكتاب(٢) الذى بين أيدينا يهتم بدراسة التأليف، وخاصة ذلك النوع من التأليف الذى يعتمد فيه المصنف على نص أحد الكتب متخذا منه محورا للتأليف بشرحه له أو بتلخيصهأو بالاستدراك عليه أو بإعادة ترتيبه أو باستكماله أو باحتوائه إلى آخر تلك العلاقات التى يمكن أن نجدها بين نصوص المؤلفات العربية والتى تندرج تحت مظلة ذلك النوع من التأليف الذى أسماه مؤلف هذا الكتاب «التأليف النصي المحورى». وقد بذل المؤلف جهده فى تصوير هذه العلاقات بالرسوم التوضيحية، وفى صياغة تسميات لم تكن مستعملة من قبل للتعبير عنها. والكتاب موجه إلى كل من له علاقة بالإنتاج الفكرى بوجه عام، وبتراث الإسلام بوجه خاص، كمحققى الكتب، وغيرهم من المهتمين بتيسير الإفادة من مصادر المعلومات التى يمثل تراث الإسلام والإنتاج الفكرى العربى جزءا مهما منه.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أبواب اشتملت على اثنى عشر فصلاً تسبقها مقدمة وتلحقها قائمة بالمصادر والمراجع التى استند إليها فى تأليفه للكتاب. ونستطيع بدورنا ولأغراض العرض أن نقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام متميزة تمثله أبواب الكتاب الثلاثة، بالإضافة إلى قائمة المصادر والمراجع.

أما القسم الأول من هذا الكتاب فهو عبارة عن مقدمة منهجية، وإطار نظرى لموضوع الكتاب. يشتمل هذا القسم على ثلاثة فصول، عرَّف المؤلف فى أولها التأليف النصى المحورى، مفرقا بينه وبين التأليف الإبداعى من جهة، وبينه والتأليف الاستشهادى كنوعين من أنواع التأليف الوثائقى من جهة أخرى. ثم عرض أسباب وظروف اختياره للتأليف النصى المحورى كموضوع للدراسة، كما عرض فى هذا الفصل الدراسات التى تتصل بهذا الموضوع من جانب أو من آخر.

ولما كان موضوع هذا الكتاب يتعلق بالتأليف والإنتاج الفكرى وعلاقات النصوص ببعضها، فكان لابد للمؤلف أن يرجع إلى ذلك الإنتاج الفكرى نفسه، المحقق منه وغير المحقق، وإلى ما كتب حول هذا الانتاج. وقد لجأ المؤلف إلى أسلوب المعاينة لاختيار عدد من الكتب التى يمكن أن تمثل ما بين النصوص من علاقات. وقد أوضح المؤلف فى الفصل الثانى من هذا القسم الأسلوب الذى اتبعه لاختيار هذه العينة.

(٢) هذا الكتاب في الأصل بحث بعنوان الاتصال القرائى وعلاقته بالإنتاج الفكرى، دراسة علي عينه من المؤلفات». وقد نال به المؤلف درجة الدكتوراه في قسم المكتبات واوثائق بكلية الآداب، جامعة القاهرة سنة ١٩٨٧.

ويختم المؤلف هذا القسم بفصل اقترح فيه إطاراً نظرياً لدراسة علاقات التأليف أو العلاقات بين النصوص وبعضها فيما أسماه «بالببليوجرافيا التكوينية»، وهو ذلك العلم الذى يمكن من خلاله تصوير العلاقات المختلفة بين النصوص وبعضها. ثم ينتقل بنا المؤلف إلى الحديث عن وسائل تصوير هذه العلاقات، وهى تلك الوسائل التى جمعها المؤلف تحت اسم «الببليوجرام» ويقصد به الرسم التخطيطى لتصوير العلاقات بين النصوص، سواء أكانت هذه العلاقات بين نسخ المخطوط الواحد، أو بين مؤلفات مؤلف واحد، أو بين أجزاء نص معين، أو بين نص والمؤلفات التابعة له، أو بين نص والمؤلفات التى استشهد بها. ثم عرض المؤلف لأشكال الببليوجرام المختلفة التى توضح العلاقات بين النصوص، وذلك من خلال استقرائه لعينة المؤلفات. وقد تبين له أن العلاقات بين النصوص كما يصورها الببليوجرام يمكن أن تتخذ الأشكال الآتية: الشكل الخطى أو الببليوجرام الخطى، الببليوجرام المتجمع، الببليوجرام الإشعاعى، الببليوجرام التشجيرى، ببليوجرام التفارع، الببليوجرام المغلق، الببليوجرام المركب. وقد ضرب المؤلف أمثلة واقعية من الإنتاج الفكرى لتوضيح هذه الاشكال المختلفة من العلاقات بين النصوص، ومن هذه الأمثلة ببليوجرام كتاب صحيح البخارى وهو ببليوجرام اشعاعى، تشجيرى، خطى أو بمعنى آخر ببليوجرام مركب.

ويرى المؤلف فى هذا الإطار أن الببليوجرام وحده لا يكفى لتمثيل العلاقات بين النصوص، ولذلك فهو يقترح وسيلة أخرى هى الببليو ـ كرونجرام لبيان العلاقات الزمنية بين النص الأصلى والنصوص التابعة له أو المتعلقة به.

ويختتم المؤلف هذا الإطار النظرى وهذا القسم من الكتاب بتحديد مفهوم النص وخصائصه الاتصالية والاجتماعية والثقافية، معرِّفا فى هذا السياق بكلمتين انتشر استخدامهما على صفحات الكتاب وهما «النص»، و «النص الأصلى»، حيث يستبدل المؤلف كلمة الكتاب بكلمة النص، حيث يرى أن كلمة الكتاب تنصرف إلى الشكل المادى للنص كالورق والكتابة والتجليد، أما تعبير «النص الأصلى» فقد استخدمه المؤلف للدلالة على نص تتصل به عدة نصوص فى علاقات مختلفة.

أما القسم الثانى من هذا الكتاب فيعد القسم الرئيسى منه، حيث شغل ما يقرب من نصف عدد صفحاته من جهة، كما أوضح فيها المؤلف العلاقات القائمة بين النصوص من خلال عينة المؤلفات مصنفا لهذ العلاقات، ومبيناً خصائصها من جهة أخرى. ويشتمل هذا القسم على سبعة فصول. تناول المؤلف فى أولها الأشكال المختلفة التى تصدر فيها نصوص الكتب العربية كالعرضة، والمقابلة، والعرض، والإبرازة، والنسخة، والهيئات.

أما الفصل الثانى من هذا القسم فقد تناول التأليف التمهيدى للنص، وقد قصد به المؤلف

مقدمات الكتب أو النصوص، ويبدأ هذا الفصل بتعريف مقدمات الكتب مميزاً بينها ومقدمات العلوم، كما فرق بين نوعين من مقدمات الكتب، وهى المقدمات المتصلة بالنص، كمقدمات أكثر الكتب، والمقدمات المنفصلة عن النص كمقدمة ابن خلدون لكتابه فى التاريخ. وقد أوضح المؤلف العلاقات القائمة بين هذه المقدمات والنصوص المتعلقة بها، مصوراً لنا هذه العلاقات فى ببليوجرام مقدمة ابن خلدون.

أما الفصل الثالث من هذا القسم فهو بعنوان تشغيل النص، وقصد به المؤلف العمليات التى يقوم بها بعض المؤلفين على نصوص كتب معينة بغرض تأليف كتب جديدة ذات صلة بالنصوص الأصلية؛ كالتلخيص، والتهذيب، وإعادة ترتيب النص، والاختيار والمجانسة، وتدريج النص، وقد أشار المؤلف فى كل هذه العمليات القائمة على تشغيل نصوص الكتب إلى أبعاد الجهد العلمى المبذول فى كل منها، مع تصوير العلاقات بين النصوص الجديدة الناتجة عن هذه العمليات، والنصوص الأصلية.

أما الفصل الرابع من هذا القسم فقد ناقش فيه المؤلف ما أسماه بتحويل النص، وقد قصد المؤلف بذلك تحويل بعض النصوص من شكل إلى شكل آخر كتحويل نص منثور إلى نص منظوم أو مرجوز. أما العلاقات بين هذه النصوص فقد صورها المؤلف فى ببليوجرام المنظومات، وقد أورد المؤلف أمثلة من الإنتاج الفكرى تمثل هذه العلاقات. ويضاف إلى نظم النصوص كشكل من أشكال تحويل النص أشكال أخرى مثل ترجمة النص أى تحويله من لغة إلى أخرى، ومثل الترجمة الأدبية الموازية وتعنى تحويل النص الأدبى من لغته إلى لغة أخرى، ومثل الترجمة الأدبية الموازية وتعنى تحويل النص الأدبى من لغته إلى لغة أخرى مع الحفاظ على شكله الأدبى كترجمة الشعر الإنجليزى إلى شعر عربى، ومثل تبيئ النص أى إكساب النص الأجنبى لغة وملامح مجتمع أو بيئة أخرى، ومثل التحويل الوعائى للنص كتحويل النصوص الأدبية إلى أعمال فنية كالأفلام، ومثل تفصيح النص أى تحويله من العامية إلى الفصحى، ومثل التحويل التعليمى والإنقرائى للنص كتحويل النص إلى صورة تناسب فئة معينة من القراء لأهداف تعليمية.

وفى الفصل الخامس من هذا القسم يعرض المؤلف لنوع آخر من العلاقات بين النصوص وهم ما سماه بمصاحبة النص، وقد قصد به مصاحبه نص لنص آخر شارحاً له أو تحشية عليه، وقد تكون هذه المصاحبة فيما يرى المؤلف من خلال استقرائه لعينة الكتب التى اختارها مصاحبة للنص بأكمله أو لأجزاء منه. ولمصاحبة النص أنواع منها شرح النص وتفسيره، والتحشية على النص، وتخريج النصوص. وقد ضرب المؤلف أمثلة واقعية من الإنتاج الفكرى العربى لهذه الأنواع مع تصوير العلاقات القائمة بينها والنصوص الأصلية المصاحبة لها.

أما الفصل السادس من هذا القسم فقد عالج علاقات التأليف المرتبط بالنص، وهذا النوع من التأليف ـ كما يقول مؤلف الكتاب ـ

لا ينفذ إلى النص ولا يخترق بنيته أو يغيرها أو يتخللها بأى شكل من الأشكال، ولكنه تأليف يوازى النص يكمله أو يبنى عليه أو يدمجه فى نص آخر. والعلاقات بين النصوص فى إطار هذا النوع من التأليف أنواع، منها الاستدراك على النص، والتذييل على النص، وإدماج النصوص، والرد على النصوص، وسائل النص، ومفاتيح النص، واستخراج النص. وقد شرح المؤلف المقصود بهذه التسميات موضحا أبعاد الجهد العلمى المبذول فى كل نوع منها، مع تصوير العلاقات القائمة بين هذه الأنواع والنصوص الأصلية المرتبطة بها مع التمثيل.

أما الفصل السابع والأخير من هذا القسم فقد ناقش علاقات التأليف المستخدم للنص وقد قصد به المؤلف تلك الكتب التى تقوم على استخدام محتوى نص كتاب معين أو احتذاء النموذج الذى يمثله فى التأليف، وينتج عن هذا الاستخدام نصوص لها ارتباط بالنصوص الأصلية. ويقسّم المؤلف استخدام النص إلى عدد من الأنواع منها التوليد من النص ويعنى قيام أحد المؤلفين بتصنيف الكتاب يستمده ويستولده من كتاب سابق. ومنها احتواء النص وهى تلك العلاقة بين نصى كتابين مختلفين يحتوى أحدهما الآخر بصورة كلية أو جزئية أو بعد تلخيصه بحيث لا يمتزج النصان، ومنها نمذجة النص وهى أن يتخذ أحد المؤلفين نصا سابقا نموذجا يحتذيه فى تأليف كتاب آخر، وقد يتأثر المؤلف بنماذج عدة نصوص.

أما القسم الثالث والأخير من هذا الكتاب، فقد جمع فيه المؤلف نتائج هذه الدراسة، مع الإشارة إلى ملاحظاته العامة حول موضوعها. ويشتمل هذا القسم على فصلين أوضح المؤلف فى أولهما أنه حاول فى القسم الثانى من الكتاب اطلاق مصطلحات جديدة لتسمية العلاقات المختلفة بين نصوص الكتب العربية وبعضها، مشيرا إلى خصائص كل علاقة من هذه العلاقات، ومبينا أبعاد الجهد العلمى المبذول فى النصوص التابعة، والوظائف التى أدتها هذه النصوص فى خدمة التعليم والقراءة بشكل عام وموضحا ما بين أشكال هذه من علاقات. وفى الفصل الأول من هذا القسم يحاول المؤلف تبويب وتصنيف هذه العلاقات فى إطار أو هيكل عام يضمها حسب تسلسلها المنطقى فى جدول شامل.

أما الفصل الثانى من هذا القسم والأخير من الكتاب فقد ضمنه المؤلف ملاحظات عامة حول التأليف النصى المحورى، وقد جمع فى هذا الفصل ما تفرق من موضوعات فى القسم الثانى من الكتاب. ونستطيع أن نوجز هذه الملاحظات فيما يلى:

١ ـ ينتج عن التأليف النصى المحورى مؤلفات تعتمد على نصوص أصلية، ولا تلبث هذه المؤلفات أن تكون محورا لمؤلفات جديدة، وأن هذه المؤلفات الجديدة تستمد قيمتها من النصوص الأصلية التى دارت حولها، والتى لها مكانة فى تاريخ الفكر أهلتها لأن تكون محورا لمؤلفات أخرى، وتنبع هذه المكانة من قدر مؤلفيها في الأوساط العلمية، أو لنفاسة موضوعاتها.

٢ ـ تزيد قراءة النصوص التابعة لنص ما

من فهم ذلك النص.

٣ ـ نشأت العلاقات المختلفة بين النصوص نتيجة لأغراض محددة كالتعليم، أو تيسير الإفادة القصوى من النص الأصلى.

٤ ـ لا تعد النصوص التابعة تكراراً لجهود سابقة.

٥ ـ حرص المؤلفون على توثيق مصادر كتبهم والإشارة إليها.

٦ ـ أدى التأليف النصى المحورى دورا مهما فى نمو المعرفة.

٧ ـ ساهم التأليف النصى المحورى فى الحفاظ على بعض النصوص الأصلية وحمايتها من الإندثار والتعطيل.

٨ ـ يعد التأليف النصى المحورى كثير التنوع، واسع المدى، متشابك العلاقات.

٩ ـ يمثل التأليف النصى المحورى حلقة وصل بين مؤلف النص الأصلى والقارئ.

بقيت لنا كلمة حول قائمة المصادر والمراجع التى ذيل بها الكتاب، والتى بلغ عدد مفرداتها ٢٢٥ مصدراً ومرجعاً باللغة العربية أو مترجما إليها، و٢٠ مصدرا ومرجعا باللغة الإنجليزية.

فكتاب ينصب موضوعه على التأليف والمؤلفات، لابد أن يستند إلى المصادر والمراجع التى لها علاقة بهذين الموضوعين، أو التى تناولتهما من قريب أو من بعيد، وتأتى مقدمات الكتب، والدراسات التى تناولت كتباً محددة، والببليوجرافيات، وكتب التراجم فى مقدمة المصادر والمراجع التى استشهد بها المؤلف. وقد بلغ نصيب هذه الفئات فى المصادر والمراجع العربية حوالى ٤٩٪ من مجموعها الكلى. وقد حظيت مقدمات الكتب نصيب الأسد فى هذه القائمة والذى بلغ ما يزيد على ٢٢٪ من مجموع مفردات هذه القائمة.

أما المصادر والمراجع الأجنبية فقد بلغ عدد مفرداتها ٢٠ مصدراً ومرجعا كلها بالإنجليزية أو مترجمة إليها، وتدور موضوعاتها حول علوم المكتبات والمعلومات، والإنتاج الفكرى والثقافة العربية والإسلامية، والعلوم الإجتماعية. كما تنوعت فئاتها بين الموسوعات وقواميس المصطلحات والقواميس اللغوية.